ابن سينا ونموذج الحكيم المسلم
دراسة في تراجم ظهير الدين البيهقي

إبراهيم محمد زين* هاني بن عبد الله الملحم**

ملخص البحث:

يركز هذا البحث حول رسم صورة للحكيم المسلم كما عرضها ظهير الدين البيهقي في كتابه "تاريخ حكماء الإسلام"، ويبرز الأسباب التي توفرت لجعل ابن سينا نموذجا للحكيم المسلم، وأهم ملامحها. وجاءت شخصية ابن سينا واقعية لحالها البشري وسعيها في تحصيل كمالها الإنساني، لذا اهتم البيهقي به في تقديمه نموذجًا للحكيم المسلم من غير إطراء أو مبالغة حتى يقتدى به وسط أجيال المشتغلين بالحكمة.

الكلمات المفتاحية: ابن سينا، نموذج، الحكيم المسلم، تراجم، ظهير الدين البيهقي

Abstract

This research focuses on drawing picture of a Muslim sage as presented by Zaheer Al-Deen Al- Bayhaqi in his book " *Tareekh hukma al-Islam"* and highlights the available reasons that make Avicenna a model of Muslim sage. Ibn Sina had realized his human condition and its pursuit in attaining the human perfection; therefore, Bayhaqi interested in him and introduced him as a model of a Muslim sage without any flattery and exaggeration so he would be followed by those who are busy in learning and doing philosophy.

Key words: Ibn Sina, Model, Muslim sage, Zaheer Al-Deen Al- Bayhaqi

Abstrak

Kajian ini memberi tumpuan kepada melukis gambar seorang cendikiawan Islam seperti yang dibentangkan oleh Zaheer Al-Deen Al-Bayhaqi dalam bukunya "*Tareekh hukma al-Islam"* dan menyerlahkan sebab-sebab yang menjadikan Avicenna, seorang model cendikiawan Islam. Ibn Sina menyedari keadaan manusia dan usaha mereka dalam mencapai kesempurnaan; oleh itu, Bayhaqi berminat dengan beliau dan

---

* الأستاذ بقسم أصول الدين ومقارنة الأديان، الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا.

** أستاذ مساعد بقسم الدراسات الإسلامية بجامعة الملك فيصل بالأحساء – المملكة العربية السعودية.

memperkenalkan beliau sebagai model cendikiawan Islam tanpa sebarang pujian dan keterlaluan supaya dia akan diikuti oleh mereka yang sibuk dalam pembelajaran dan menjalankan falsafah.

Kata Kunci: Ibn Sina, Model, Cendikiawan Islam, Zaheer Al-Deen Al-Bayhaqi

المقـــدمة

هذا البحث يتوخى الإجابة عن سؤال مركزي، وهو ما غرض كتاب تاريخ حكماء الإسلام لظهير الدين البيهقي؟ فإن كانت الإجابة الأولية أن الغرض هو التأريخ لهؤلاء الحكماء وحفظ ذكرهم وتدوين مآثرهم الخلقية والتنويه بمراتبهم العلمية، فإن الإجابة العميقة -بعد طول تأمل في تلك التراجم- تقول: إن البيهقي أراد أن يرسم لنا صورة لذلك الحكيم النموذجي، وأنه من جملة أولئك الحكماء قد انتخب ابن سينا لذلك المنصب الرفيع وتلك الرئاسة العلمية العظيمة، لكنه وجد أن ابن سينا قد قصَّر عن تحصيل تلك الرئاسة بسبب سلوكه العملي حسب المقاييس التي ارتضاها أهل الحكمة أنفسهم، ولذلك أراد في ترجمته لابن سينا أن يجد المسوغات العقلية والنفسية لتغير ذلك التقصير، وبيان أنه لم يقدح في نيل ابن سينا لتلك الرتبة.

وقد يعترض البعض على ما ذهبنا إليه في بيان غرض الكتاب بأن البيهقي قد ذكر في ترجمة الفارابي بأنه قد قيل: "إن الحكماء أربعة: اثنان قبل الإسلام وهما أرسطو وأبقراط، واثنان في الإسلام وهما أبو نصر وأبو علي"[1]. ثم عقب على ذلك بقوله: "وكان أبو علي تلميذاً لتصانيفه"[2]. ثم ذكر منها على

[1] البيهقي، ظهير الدين، **تاريخ حكماء الإسلام**، تحقيق محمد كرد علي، (دمشق: الترقي، 1946م)، ص30.

[2] المرجع السابق ص30.

لسان الفارابي[3] ما ينبغي أن يتوفر فيمن يريد الشروع في علم الحكمة، وكيف تكون سيرته إن بلغ الغاية القصوى في الحكمة، ويبدو واضحًا أن ابن سينا قد أخلّ بجزء غير يسير من تلك الشروط التي وضعها الفارابي، وأنه من الأولى اتخاذ الفارابي نموذجًا للحكيم المسلم. وقد يقال: إن نموذج أبي الخير الحسن بن بابا[4] أقرب إلى الوفاء بتلك الشروط، حيث إنه أسلم على يد رسول الله ﷺ في المنام حسب تلك القصة التي رويت عن إسلامه ونقلها البيهقي، وأنه كذلك قد قيل في وصفه: "وقيل لأبي الخير بقراط الثاني، وحق له ذلك فإن النبي عليه السلام سماه في منامه عالماً"[5]. ويُستفاد من تعليق البيهقي تأكيده على ذلك المعنى، وقد يضاف إلى أبي الخير فيلسوفًا وحكيمًا آخر، وهو الفيلسوف أبو الفرج بن الطيب الجاثليق[6]، كانت المنافسة بينه وبين أبي علي على أشدها، وقد أبدى البيهقي تعاطفًا معه، ووجَّه نقدًا صريحًا لأبي علي بسبب تهجينه لكتبه ، بالإضافة لهذين الحكيمين اللذين من طبقة أبي علي، قام البيهقي بترجمة حكيمين آخرين من معاصريه، وهما: محمد بن محمد بن عبد الجليل العمري الكاتب، والسيد الإمام زين الدين إسماعيل بن الحسن الحسيني الجرجاني الطبيب، وجاء في ترجمة الأول كلامٌ أشبه بالشعر في بيان مناقبه، وقد توسع في الترجمة له ونقل آثاره في الحكمة في كتابه مشارب التجارب وغرائب الغرائب في التاريخ، مما يدل على احتفاله به وعظيم تقديره له[7]. وأما في ترجمة الثاني[8] فقد وصفه بأنه "أحيا الطب وسائر العلوم بتصانيفه اللطيفة ... وسارت بتصانيفه الركبان، وهي

[3] المرجع السابق، ص34.
[4] المرجع السابق، ص26.
[5] المرجع السابق، ص28.
[6] المرجع السابق، ص43.
[7] المرجع السابق، ص163، 169.
[8] المرجع السابق، ص172، 174.

كتب مباركة، وسمعت من أثق به أنه كان لطيف المعاشرة، حسن الأخلاق كريمًا في ذاته"[9]. وقد ختم البيهقي[10] تراجمه للحكماء به، ونقل عنه رسالة له فيها جملة من الحكم تبين لنا نموذج الحكيم المسلم.

لا شك أن هذه النماذج يمكن أن يُتخذ أيٌّ منها نموذجًا للحكيم المسلم، لكن الناظر المتأمل يرى أن الفيلسوف أبا الفرج بن الطيب الجاثليق ربما يُخرَج بسبب عدم إسلامه، وأن ابن سينا كان قد تميز عليه في الطب كما ذكر البيهقي، وأن أبا الخير على جلالة قدره في الطب فهو لم يصل في النبوغ في الإلهيات والمنطق ما حصلّه ابن سينا في هذا المجال. وأما النموذجان الآخران فهما من معاصري البيهقي، وكلاهما لم يؤثر عنه ذلك النبوغ الذي حصله ابن سينا في جميع أجزاء الحكمة، وكذلك الإضافات التي كمّل بها علوم الحكمة، وجعلها جزءًا أصيلاً من العلوم الإسلامية، ولا ينفي ذلك أن ابن سينا قد قصَّر في جانب العمل رغم كماله في جانب العلم والنظر، لكن البيهقي ينبهنا إلى حسن الخاتمة التي انتهى إليها ابن سينا قبل موته، وأن علمه وتوفيق الله قد قيضا له ذلك المآل الحسن ، ولبيان ما ذهبنا إليه لا بد من النظر في تفاصيل رؤية ظهير الدين البيهقي في ترجمة (الحكيم الوزير شرف الملك أبو علي الحسين بن عبدالله ابن سينا البخاري) في كتابه "تاريخ حكماء الإسلام" إذ المتأمل في الكتاب ومنهج البيهقي في عرضه لهذه التراجم يجدها فريدة، ولم يسبق لها المترجمون بعده، لكون المنهج الذي سلكه مؤلفه مختلفًا عن بقية منهاج المترجمين والمؤرخين، فالبيهقي تناول الحكماء، ولم يقتصر على المسلمين منهم، بل ترجم لكل من اعتنى بالحكمة والفلسفة من الأطباء والمهندسين ومن اشتغل بالوزارة،

---

[9] المرجع السابق، ص172.

[10] المرجع السابق، ص173، 174.

ولو كانوا من غير المسلمين كاليهود والنصارى وغيرهم ممن أقام وتأثر بالمسلمين وبلادهم، والذين عرفوا بها والذين لهم أقوال مأثورة، مركزا على شخصية الشيخ الرئيس الفيلسوف الحكيم المسلم ابن سينا الذي يكاد الكتاب منصبا حوله، عارضا ابن سينا نموذجًا للحكيم المسلم ، لذا حرص البيهقي أن يبرز لنا عملاقًا من عمالقة الفلسفة في الإسلام وحكمائها، وعبقرية فذة أنتجها الفكر العربي المحلق، عاش حياته عاملاً ومفكرًا ومنتجًا، حتى قدم للمكتبة العربية والعالمية خلاصة ما سبقه من علم وفن، ثم كان سابقًا لزمنه فكان نتاجه المائدة الشهية بشتى العلوم، فتلقفتها الأكاديميات العلمية والجامعات العالمية تنهل منها، وتأخذ من أفكارها الحكمة والعلم ، ولعل لقب الرئيس اكتسبه من اشتغاله بالسياسة، ولقب الشيخ لقب علمي، والشيخ الرئيس يدلان على جمعه بين الاشتغال بالعلم والسياسة، فهو أشبه بالحاكم الفيلسوف[11].

لذا سوف نقف في هذه الدراسة على ترجمة الشيخ الرئيس ابن سينا كنموذج للحكيم المسلم، والأسباب التي توفرت له دون غيره من العلماء، مركزين على دراسته في تراجم ظهير الدين البيهقي والرؤية التي تناولها من خلال كتابه معرجين على أهم ملامحها، وبين من ترجم له من العلماء، سواء ما حكاه عن نفسه، وذكرها الرئيس عن نفسه، والتي نقلها عنه تلميذه أبو عبيد الجوزجاني، وبقية من ترجم له كابن أصيبعة في عيون الأنباء في طبقات الأطباء، أو بقية من ترجم له.

---

[11] الأهواني ،أحمد فؤاد ، **عصر ابن سينا**، (مصر: دار المعارف)، ص19. ولقد اختلف بشأن تفسير لقب الشيخ الرئيس"ابن سينا"، فقد قيل (سينا) لقب، وقيل اسم، والأشهر أنه لقب له، ثم اختلفوا هل هي من أصل عربي بمعنى الثناء؟ أم أصل مصري قديم بمعنى الحكيم الكامل؟ أم من أصل تركي مثل "سيما" أم من أصل عبراني، أو سيرياني "شينا" ثم انقلبت الشين سينا. وفي كتاب الخوارزمي "مفيد العلوم ومبيد الهموم" أن أبا علي بن الحسين كان بقرية بخارى يقال لها سينا فسمى نفسه "ابن سينا"، ولم يخرج الباحثون برأي فاصل.

والناظر في كتاب "تاريخ حكماء الإسلام للبيهقي" يجده من أغنى كتب التراجم والتاريخ، والذي أخذ مؤلفه فيه منهجا خاصا تميز فيه، و لم ينهج الطريق التي عرفت بها كتب التراجم الأخرى ، لذا يحسن بنا أولا أن نقف على عجالة عند الفيلسوف الحكيم البيهقي الذي عرف أولا بالحكمة والعلم، والذي حرص محقق الكتاب على إبراز نسبه الموسوم بالحكمة والعلم قائلا: "هو ظهير الدين أبو الحسن فريد خراسان، ابن فندق علي بن زيد بن ثابت الملقب بذي الشهادتين، وهو من سلالة خزيمة بن ثابت الأنصاري.

ولد كما قال عن نفسه في مشارب التجارب: مولدي في يوم السبت، سابع عشرين شعبان نواحي بيهق من أعمال نيسابور عام 499هـ[12]، ونشأ فيها ثم رحل مع والده إلى ششتمذ من قرى نيسابور، وكان والده من كبار العلماء والحكماء في نيسابور، وأمه من حفظة كتاب الله عالمة بتفاسيره[13]، ولكنه انتقل بعد وفاة والده إلى مرو، فقرأ على يحيى بن عبد الملك بن صاعد، وألف كتبًا في الفارسية، وأتقن اللغة العربية، فأصبح كاتبًا عملاقًا، وشاعرًا محلِّقًا، وواعظًا مفهومًا، وعالمًا مؤلفًا، في كل علم وفن. وقد عدد ياقوت الحموي كتبه ومؤلفاته، فكانت 74 كتابًا، منها ما هو في مجلدين، ومنها ما هو أكثر من ذلك، وأغلب تلك المؤلفات في العلوم الدينية، ومنها ما كان في الأدب والتاريخ، ومن هذه المؤلفات ما هو في الحكمة والأدب والتاريخ، ثم وضع بضعة كتب بالفارسية، ومنها تاريخ بيهق، ولعل من أشهر ما ألفه البيهقي

---

[12] حكاه عنه ياقوت، في **معجم الأدباء**،(بيروت: دار الكتب العلمية، 1991م)، ج5، ص208، وابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق الدكتور إحسان عباس، (بيروت: دار صادر)،ج3، ص387 في ترجمة الباخرزي.

[13] **مقدمة تاريخ حكماء الإسلام**، ص3.

"كتاب أسرار الحكم وأطعمة المرضى والمعالجات"، و"كتاب السموم"، و"كتاب أحكام القراءات"، و"كتاب شرح نهج البلاغة"، و"كتاب جوامع أحكام النجوم"، وغيرها الكثير، ولقب بحجة الدين كما جاء في بعض كتبه كجوامع أحكام النجوم، ولكنه اشتهر بـــ"ظهير الدين" كما جاء في مقدمة كتاب "تتمة صنوان الحكمة" لأبي سليمان السجستاني. وأما وفاته فكانت في سنة 565هـ بالاتفاق، ذكرها ياقوت والذهبي والصفدي ومن بعدهم، ولم يذكر أحد منهم يوم الوفاة والشهر. وعاش البيهقي سُنّيًّا في بلدة أكثرها متشيعة، وشهد أيامه غزو الترك لبلاد خراسان ولا سيما نيسابور دار العلم، فكانوا يحرقون كتبها، ويقتلون علماءها.

ويجد الباحث أن الحكيم البيهقي شغلته الحكمة من كل جوانبها، واحتضنته فنونها، فاختار لكتابه القيّم اسما يستحق التأمل والتوقف "تاريخ حكماء الإسلام"، ولم يقل: "تاريخ فلاسفة الإسلام"، إذ "الحكمة"[14] بمعناها الواسع لدى الفلاسفة[15]، والحكمة كما بينها محقق كتاب البيهقي هي: "علم يبحث فيه عن

[14] في العصر اليوناني القديم الحكمة مرادفة للفلسفة، وهي صناعة نظر، يستفيد منها الإنسان تحصيل ما عليه الوجود كله في نفسه، وما عليه الواجب مما ينبغي عليه الواجب، مما ينبغي أن يكسبه فعله لتشرف بذلك نفسه، وتستكمل وتصير عالما معقولا مضاهيا للعالم الموجود، وتستعد للسعادة القصوى بالآخرة، وذلك بحسب الطاقة الإنسانية. رسائل ابن سينا، علي بن الحسين، **أقسام العلوم**، (مصر: دار المعارف، ط1، 1980م)، ص104، والحكمة تعلم حقائق الأشياء، والله تعالى يقول: ﴿يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:269].

[15] الفلسفة مشتقة من كلمة يونانية، وهي فيلاسوفيا، وتفسيرها محبة الحكمة، فلما أعربت قيل فيلسوف، ثم اشتقت الفلسفة منه، ومعناها علم حقائق الأشياء والعمل بها بما هو أصلح، تتناول أبعادًا وتصورات عميقة، وليست مختصة بمعنى واحد، ونقل البيهقي في ترجمة أبي الفتح يحى بن علي البستي قوله: تق

الله والزم عرى دينـــه وبعدهما فاعرف الفلسفة

ودع عنك قوما يعيبونهـــا ففلسفة المرء قل السفـــه

حقائق الأشياء على ما هي عليه في الوجود بقدر الطاقة البشرية، فهي علم نظري غير آلي"[16]. وإن كان الحكماء عند بعض العلماء هم الذين يكون قولهم وفعلهم موافقا للسنة، أو كما فسرها ابن عباس أنها في القرآن بتعلم الحلال والحرام ، فقد جاء في الرسالة للشافعي رحمه الله في باب (البيان الرابع) اقتصاره الحكمة على السنة فقال: "كل ما سّن رسول الله مما ليس فيه كتاب، وفيما كتبنا في كتابنا هذا، من ذكر ما منّ الله به على العباد من تعلم الكتاب والحكمة، دليل على أن الحكمة سنة رسول الله"[17]، لكن البيهقي أكد أن الحكمة تتناول مفهوما أوسع من هذا، وأنها أيضا غير مختصة بالمسلمين قائلا: "الحكماء أربعة: اثنان قبل الإسلام وهما أرسطو وأبو قراط، واثنان بعد الإسلام هما أبو نصر الفارابي وأبو علي ابن سينا"[18]، كما نقل البيهقي قول الفارابي في الحكمة قائلا: "ينبغي لمن أراد الشروع في الحكمة أن يكون شابا صحيح المزاج، متأدبا بآداب الأخيار، قد تعلم القرآن واللغة وعلم الشرع أولا، ويكون صيتا عفيفا متحرجا صدوقا، معرضا عن الفسق والفجور والغدر والخيانة والمكر والحيلة، وأن يكون فارغ البال من مصالح معاشه، مقبلا على أداء الوظائف الشرعية، غير مخل بأركانها، ولا مخل بآداب السنة"[19].

ونقل الجرجاني، علي بن محمد، في **التعريف**، (بيروت: دار الكتب العلمية) قوله:" التشبه بالإله بحسب الطاقة البشرية لتحصيل السعادة الأبدية كما أمر الصادق عليه الصلاة والسلام في قوله: "تخلقوا بأخلاق الله أي تشبهوا به في الإحاطة بالمعلومات والتجرد عن الجسمانيات". ص75، والقفطي، جمال الدين علي، **تاريخ الحكماء**، (القاهرة: مؤسسة الخانجي، د.ب)، ص50، ونقل البيهقي عن السيد الإمام الفيلسوف شرف الزمان محمد اليلاقي قوله فيها: "الفلسفة علم الكل، وصناعة الصناعات"، ص132.

16 مقدمة المحقق، ص15.

17 الشافعي، محمد بن إدريس، **الرسالة**، تحقيق محمد سيد الكيلاني، (بيروت: دار الكتب، 1403هـ)، ص22.

18 البيهقي، **تاريخ حكماء الإسلام**، ص30.

19 المصدر السابق، ص34.

وفي المقابل نقل البيهقي في ترجمة أبي علي عيسى بن إسحاق بن زرعة أنه نقل عنه قال في وصف الحكمة قوله: "من زعم أن الحكمة تخالف الشريعة فهي مفسدة لها"[20]، كما نقل البيهقي عن الحكيم أبي الحسن الأبردي قوله: "من أكثر استماع الحكمة أوشك أن يتكلم بها"[21]، وهذه لفتة أن ابن سينا شغلته الحكمة بمفهومها العام والواسع الإمام ظهير الدين البيهقي، وسرد تراجمه لكل شخصية تناولها بهذا المنحى.[22] ، بل لم يقتصر البيهقي الحكمة على المسلمين فقط جعلها وصفا لغيرهم، فقد بدأ ترجمة كتابه بأول حكيم وهو حنين بن اسحاق[23]

لذا أراد البيهقي في عرضه أن يبين أن كتابه جاء ليعرض جانبا من سير الحكماء ناقلا أهم حكمهم، مركزا على شخصية الحكيم ابن سينا بوصفه أحد حكماء المسلمين، والذي توفرت له أسباب الحكمة التي بعضها من كسبه الشخصي وهمته العالية، والآخر بسبب توفيق الله له.

---

[20] المصدر نفسه، ص75. وقال مقدمة غير كلية وتقريرها: الحكمة مخالفة للشريعة، وكل ما هو مخالف لشيء مفسد له، والكبرى غير كلية فإن الحلاوة تخالف البياض ولا تفسده، والصور تخالف المادة ولا تفسدها، فإذا كانت الكبرى غير كلية لا ينتج القياس.

[21] المصدر السابق، ص134، ولنا في دراسة الحكمة عبرة فقد نقل البيهقي حكمة أبي الريحان البيروني في عرض ترجمته والتي يقول فيها:" مدارسة أخلاق الحكماء تحي السنة الحسنة، وتميت البدعة السيئة". المصدر السابق، ص74.

[22] حاشية في أول تراجمه عن كل شخصية تناولها بالتعريف أن يقول في بداية الترجمة هو الحكيم فلان ... أو كان حكيمًا أو كان حاذقًا بعلوم الحكمة أو من قدماء الحكماء وغير ذلك من العبارات.

[23] حنين بن إسحق العبادي (194هـ/809م – 264هـ/877م): ويكنى أبا زيد،كان عالماً باللغات الأربع (العربية والسريانية واليونانية والفارسية) وهو تلميذ يوحنا بن ماسويه الذي عينه هارون الرشيد (أمينًا) مسؤولاً عن الترجمة عندما أنشأ دار الحكمة، كان المأمون معجبًا به، مقدِّرًا لعلمه وفضله، فاختاره لتقلد رياسة بيت الحكمة، وكان يتقاضى من المأمون وزن ترجماته ذهبًا، وقال عنه البهيقي: "ولم يوجد في هذه الأزمنة بعد الإسكندر أعلم منه باللغة العربية واليونانية". البيهقي، **تاريخ حكماء الإسلام**، ص30.

1. منهج الكتاب وأهم ملامحه الخاصة:

ذكر البيهقي في مقدمة كتابه "تاريخ حكماء الإسلام" أنه نسج فيه على منوال كتاب "صوان الحكمة" لأبي سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجزي الذي يرد اسمه في موضع آخر في كتاب البيهقي المذكور على هذا النحو: أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني، و لم يتعرض البيهقي في كتابه هذا لحكماء اليونان، ولكنه قصره على حكماء الإسلام كما يؤخذ من عنوان الكتاب وموضوعه.

ثم أنه لم يورد فيه تراجم جميع حكماء الإسلام الذين وردوا في غيره من كتب تواريخ الحكماء وسيرهم، ولكنه اقتصر على ما يقرب من خمسين ترجمة، منها ما لايزيد عن سطرين، ولعل ذلك يرجع إلى أنه جعل كتابه متممًا لكتاب "صوان الحكمة". قال البيهقي في مقدمة تاريخه: "وكل من ذكره وأثبت اسمه مصنف كتاب "صوان الحكمة"، فأنا ما سقيت شماريخه، وما ذكرت فوائده وتواريخه، فإنه أنصف في ذكرهم وبالغ في حقهم، ونشر أردية جلهم ودقهم"[24].

ولعل هذا المنهج الذي سلكه في كتابه، ميزه عن بقية كتب التراجم الأخرى، ولكنّا نجد أن الترجمة التي حازت على اهتمامه هي ترجمة ابن سينان وكأن الكتاب كله منصبًّا نحوه، فهو إما عارض لحياته العلمية والفكرية والسياسية، وإما متناول لمواقف ابن سينا في معرض حديثه عن بعض الشخصيات التي تناولها، سواء أكانوا من شيوخه أو طلابه أو من العلماء الذين دار بينه وبينهم مقابلات أو خصومات أو مناظرات أو غير ذلك.

---

[24] البيهقي، **تاريخ حكماء الإسلام**، ص16.

2. أهم الملامح البارزة التي تميزت بها رؤية البيهقي في عرض تراجمه:

1. إن البيهقي في كتابه هذا لم يترجم لحكماء اليونان، ولكنه قصره على حكماء الإسلام.
2. ثم أنه لم يورد فيه تراجم جميع حكماء الإسلام الذين وردوا في غيره من كتب تواريخ الحكماء وسيرهم، ولكنه اقتصر على ما يقرب من خمسين ترجمة، بعكس كتب التراجم الأخرى.
3. الترجمة التي أوردها البيهقي في كتابه لابن سينا تعد أكبر التراجم التي ذكرت للفيلسوف، وأغزرها مادة وأقدمها أيضًا.
4. تميز منهج البيهقي في عرضه للتراجم أنه لم يعرض سير ومولد ووفاة الشخصية التي ترجمها، واكتفى بذكر أشهر أقوالهم.
5. تميزت ترجمة البيهقي أنه اكتفى بالعناية بترجمة أهل القرن الخامس والسادس من جميع الحكماء المسلمين منهم وغير المسلمين كالصابئة والمجوس واليهود والمسيحيين ممن نشأوا في ديار الإسلام وكتبوا تآليفهم بلغته بعكس كتب التراجم الأخرى.
6. ترجم الإمام البيهقي لكثير على سبيل الإيجاز، وتوسع في ترجمة ابن سينا.
7. رتب البيهقي كتابه بحسب القدم، لا بحسب حروف المعجم، ولا بحسب أقطار العلماء.
8. لو نظرنا إلى الذين اقتصر عليهم البيهقي نجدهم من بعض حكماء خراسان وفارس والعراق والتتمة في كتاب في الفلسفة ذكر فيه تراجم حكماء اليونان خاصة، و لم يترجم البيهقي لأحد من أهل الشام وإفريقية والأندلس لبعده عن الشام وما وراءها، وشدة الحروب الصليبية في أيامه، ولانقطاع المواصلات بين أبناء الشرق والغرب.

لذا نجد أن معظم من ترجم لهم البيهقي كانوا من أهل القرنين الخامس والسادس، وبعضهم من الصابئة واليهود واليعاقبة والنساطرة ممن نشأوا في ديار الإسلام وكتبوا تآليفهم بلغته.

لكننا نجد أن البيهقي ترجم لكثير بإيجاز، وتوسع في ترجمة "ابن سينا" خاصة، وأوجز في ترجمة الكثير كالفارابي والبيروني والرازي وغيرهم،كما أن الأخبار في هذه التراجم مختصرة ما لا نجد من تراجمهم في كتب السير المطولة، وكان البيهقي يكتفي أحيانا بذكر كنية الرجل، ولا يعنى بتحقيق اسمه كما أنه اعتنى بما أثر عنهم من حكم وأقوال فقط، فلم يحرص على تدوين سنتي ولادتهم ووفاتهم كما هو دأب كتب التراجم المعروفة، ولقد بين المحقق في مقدمة الكتاب قوله: "ولو أردنا المقارنة بين "تاريخ حكماء الإسلام للبيهقي" وبين كتب التراجم الأخرى لوجدنا اختلافا في المنهج والطريقة فمثلا نرى طبقات الحكماء للقفطي وكتاب البيهقي لكل منه مزية ومنهجا خاصا، فالقفطي ألف كتابه بعد البيهقي بمئة سنة، وبالمقابل نجد أن البيهقي ترجم لعظماء من فلاسفة الإسلام لم يتعرض لهم القفطي[25]"، وإن كان لا يغني كتاب عن كتاب فكتاب تاريخ حكماء الإسلام رسم ناحية من نواحي التفكير الإسلامي في زمن يكاد يكون خاتمة سمو العقل ومبدأ تراجع العلم في الإسلام، ولذلك كان حرصه واضحًا لإدراج الحكمة بمعناها الواسع في سياق الثقافة العربية الإسلامية، وبيان النموذج الشخصي الذي يمثلها.

تمهيـــــد

لا يكاد يخلو مؤلف حديث يتعرض لذكر الإسلام ومدينته الفكرية من الإشارة إلى ابن سينا مع ذكر ترجمة له تقصر أو تطول بقدر ما يتسع له

[25] البيهقي، **تاريخ حكماء الإسلام** ص 9.

المؤلف، فقد ترجم له في أوروبا في العصر الحديث كثير من المستشرقين[26]، وترجم له من الشرقيين بالتركية: كريم أفندي[27]، وبالعربية: جورجي زيدان، وخير الدين الزركلي، وفريد وجدي، ولطفي جمعة، وغيرهم[28].

---

[26] وهم كثير منهم: تنمان، ومهرن، وليبرت، ولوبون، ومونك، وهويار، ولوكلرك، ودي كوننج، وجوتيه، وكارادي فو، وماسينون، وغير هؤلاء من المستشرقين.

[27] ظهرت هذه الترجمة بجريدة" **تصوير أفكاري**"، راجع المجلة الأسيوية، السلسلة السادسة، ج2، ص229. وظهرت بعد ذلك كتب مهمة في التاريخ والسير، منها كتاب "**وفيات الأعيان**" لابن خلكان، ومنها **روضة الأفراح ونزهة الأرواح** للشهرزوري، شمس الدين محمد، (حيدر أباد-الدكن: دائرة المعارف العثمانية، 1976م).

والكتابان لهما قيمة كبيرة في فن التراجم والسير، إلا أنهما لا يفيدان شيئًا جديدًا عن حياة ابن سينا على وجه الخصوص؛ فإن ابن خلكان يورد ما أورده القفطي بحذافيره، اللهم إلا نبذة صغيرة عن اختلاف الآراء في وفاة ابن سينا، والشهرزوري أورد ما أورده البيهقي من غير زيادة أو نقصان.

[28] لعلي أشير هنا كذلك إلى مسألة، وهي أن بعض المترجمين خلط بين البيهقي ظهير الدين وغيره ممن عرفوا بالبيهقي كالمحدث الأصولي القاضي صاحب التصانيف في الشريعة أبو بكر البيهقي، فالذهبي مثلا خلط بينهما، فترجم للبيهقي صاحبنا في **سير أعلام النبلاء**، ج20، ص585 وقال: (البيهقي الوزير، العلامة ذو التصانيف، ...)، كما خلط بينهما العماد الكاتب وقال: (شرف الدين أبو الحسن علي بن الحسن البيهقي، من أفاضل خراسان، وأماثل الزمان، وأعيان الأنام، وأعوان الكرام). وخلط بينه وبين صاحبنا البيهقي علي بن زيد فقال: (وكان يثني أبدا والدي على فضله ويقول: إنه لم ينظر قط إلى نظيره، ولا مثلت لعينه عين مثله، فالبيهقي الوزير لم يوصف بالعلم والفضل والتأليف، وقد مات قبل البيهقي صاحبنا بنحو ثلاثين سنة، والتحقيق: أن البيهقي الملقب بشرف الدين هو رجل آخر يشترك معه في عصره وبلده ونسبته، وفي اسمه وكنيته، وهو: ظهير الملك أبو الحسن علي بن الحسن شرف الدين، لذا أراد الزركلي في كتابه الأعلام أن يؤكد أن صاحبنا ظهير الدين البيهقي، مؤلف تاريخ حكماء الإسلام، هو غير البيهقي المحدث والبيهقي الأديب، وقد نسب إلى بيهق من العلماء والأدباء كثيرون، وصاحبنا -محل الدراسة - هو ظهير الدين أبو الحسن علي بن زيد من سلالة خزيمة بن ثابت. ظهير الدين البيهقي، **معارج نهج البلاغة**، ص157. ولقد بين ذلك صاحبنا في تاريخ بيهق وذكر أكثر من أربعين من جملة البيهقيين، من العلماء والأدباء ممن ربما يخلط على أي مترجم بينهما، وتناول القاضي المحدث المشهور بإسهاب. ص137.

والحقيقة كل هذه التراجم المختلفة إنما ترجع في الحقيقة إلى ترجمتين تتم إحداها الأخرى وتكملها، وأهم هاتين الروايتين وأوفاهما ليست على حال واحدة في المراجع المختلفة التي وردت فيها فتارة نجدها موجزة ومختصرة، وتارة نجدها صافية ومطولة، وأحيانًا تُعرض كما أملاها الفيلسوف على تلميذه الجوزجاني، ومعها ما أضافه هذا التلميذ، وأحيانًا يتصرف فيها الكاتب، فيعرضها من قبله بحيث لا نشعر أن ابن سينا قد أملى جزئها الأهم، والواقع أن هذه الرواية ترجع إلى عصر الفيلسوف نفسه، فهي تنبئنا أن ابن سينا قد أملى نصفها الأول على تلميذه الجوزجاني عندما لقيه بجرجان، فكان هذا حوالي 403هـ، أو عندما بلغ الفيلسوف ثلاثة وثلاثين ربيعًا من حياته، وكتب قسمها الآخر تلميذه المذكور، وذلك بعد وفاة الفيلسوف عام 428هـ، وقبل 450هـ الذي توفى فيها ذلك التلميذ.

لذا يظهر أن هذه الترجمة أصدق الترجمتين اللتين وجدتا للفيلسوف، والأصل الأول الذي تفرعت عنه التراجم اللاحقة، قديمها وحديثها، أوربيها وشرقيها، وأقدم المراجع التي وردت فيها هذه الرواية –ويمكن تسميتها بالرواية العربية تمييزًا لها عن الرواية الأخرى التي كتبت بالفارسية– وهي الترجمة التي أوردها البيهقي في كتابه "**تاريخ حكماء الإسلام**" فهو أكبر كتب التراجم، وأغزرها مادة وأقدمها أيضًا لكون البيهقي معاصر له ولعلنا نقف عند ترجمته كما أراد البيهقي أن يرويها ويورد أحداثها، ولكن هذا البحث يُعنى بدراسة رؤية البيهقي في عرضه لسيرة ابن سينا، وأن تلك الرؤية كانت تُعنى في المقام الأول بتقديم نموذج للحكيم المسلم من خلال تلك الترجمة، بل أن الكتاب كله قد خُصص لبيان هذا النموذج بالتركيز على سيرة ابن سينا.

3. ترجمة ابن سينا وحياته وأخلاقه:

كعادة البيهقي لم يرد أن يترجم لابن سينا كما هي طريقة كتب التراجم، ولكنه انفرد فسلك طريقا جديدا، مبتدأ الحديث عن الشخصية التي كانت البداية في صناعة العقلية الفكرية والفلسفية والعلمية لابن سينا وهي أبوه قائلا[29]: "أبوه رجل من رجال أهل بلخ من الكفاءة والعمال، وانتقل إلى بخارى في أيام الأمير الحميد ملك المشرق نوح بن منصور، واشتغل بالتصرف، وتولى العمل بقربة خُرْميتَن من ضياع بخارى، وولد أبو علي بهذه القرية في صفر سنة سبعين وثلاثمائة، والطالع [السلطان] درجة شرف المشتري، والقمر على درجة شرفه"[30]، ويظهر هنا تأثر البيهقي بعلوم أهل عصره وتأثره بالرؤية والعلوم التي انتشرت في وقته، والتي منها "علم الفلك والتنجيم"، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا لماذا أفرد البيهقي ابن سينا بذكر مطلعه والتفصيل فيه دون غيره من التراجم الأخرى؟ ويمكن الجواب عن هذا بأن البيهقي ركز كتابه على شخصية ابن سينا ولم يكتفي بإفراد ترجمة له ولكن كان يعرض لمواقفه وأحواله في التراجم لغيره.

---

[29] البيهقي، **تاريخ حكماء الإسلام**، ص52.

[30] الطالع هو البرج الذي كان في الأفق ساعة الولادة، وتكمن أهمية معرفة الطوالع بأنها ترسم الشخصية الظاهرية للفرد وكيفية تعامله مع الآخرين، وقد بيّن علم الفلك والتنجيم وجود ارتباط بين أوضاع الكواكب وطبيعة الوليد ومهنته في المستقبل، لذلك فإن دراسة أوضاع وحركة الأجرام السماوية في لحظة ولادة الإنسان تتيح الوصول إلى نوع من التنبؤ حول مستقبل الوليد وخصائص طبعه وسلوكه الاجتماعي، والتنجيم علة نوعين تنجيم بالرجم بالغيب وهو من الذنوب العظام، والتنجيم القائم على المعرفة العلمية وهو علم كبير له أصوله ومعارفه التي اشتهر بها كثير من الحكماء والمهندسين، ترجم لهم البيهقي في كتابه، ومنهم: يحي بن منصور صاحب الرصد أيام الخليفة المأمون. ص29، وأبو عيسى يحى بن علي. ص110، والحكيم علي بن شاهك الضرير البيهقي. ص171.

وفي المقابل ذكر البيهقي في ترجمته لابن سينا أن طالع ابن سينا هو برج السرطان وهو معروف بأن صاحبه مزاجي حساس يبدي اهتماما بالمحيطين به، والناظر في سيرة وترجمة ابن سينا يجد هذا الأثر على شخصيته وتكوينه وعلاقاته وحتى علومه ومصنفاته، فابن سينا توسع في شرب النبيذ، وأكثر من ملذات الحياة، ومن ناحية أخرى توسع من الورود على الحكام ومجالستهم، بل بعض مصنفاته كانت ردة فعل لمواقف بينه وبين علماء عصره ويوضح هذا تأثره بالمحيطين به، من هنا حرص البيهقي على ذكر طالع ابن سينا لارتباط الطالع بشخصية ابن سينا التي أراد التمحور حولها وعرضها وعرض جوانب الحكمة والفلسفة عنده. ولقد عقد ابن خلدون في مقدمته فصلا سماه "علم الهيئة والأزياج" وهو العلم الذي ينظر في حركة الكواكب الثابتة والمتحركة، وهو علم عرفه اليونان واعتنوا بالرصد واتخذوا له الآلات التي ترصد حركة الكوكب وتسمى (ذات الحلق)، والإسلام لم يعتن به إلا قليلا وكان في أيام المأمون شيء منه، يقول ابن خلدون: "وهي صناعة شريفة تعطي أن الصور للأفلاك لزمت عن حركات، ومن أحسن التآليف كتاب المجسطي وقد اختصره الأئمة من حكماء الإسلام كابن سينا وأدرجه في تعاليم الشفاء"[31]، من هنا ندرك لماذا حرص البيهقي على إيراد طالع ابن سينا الذي كان عالما به وبعلم الأزياج المنتشر في عصره[32]. لذا تحول التأليف في هذا الجانب من مجرد تخرصات ورجم بالغيب إلى علمٍ دقيق يُنبأ عن رصدٍ علمي لحركات الكواكب، وتحويل ذلك

---

[31] ابن خلدون، أبوزيد عبد الرحمن الحضرمي، **المقدمة**، تحقيق درويش الجويدي، (بيروت: دار المعرفة، ط2)، ص473 بتصرف يسير.

[32] من فروع علم الهيئة والفلك وهو صناعة حسابية على قوانين عددية فيما يخص كل كوكب من طريق حركته وما أدى برهان الهيئة في وضعه. **المقدمة**، ص473.

إلى معادلات حسابية تفتضي إلى استنتاجات علمية حول النماذج الممكنة للسلوك الإنساني، وارتباطه بتلك الحركات الفلكية.

ويكمل البيهقي ترجمة ابن سينا قائلا: "ثم ولد أخوه محمود بعده بخمس سنين، ثم انتقلوا إلى بخارى، وأحضر أبو علي معلم القرآن ومعلم الأدب، فلما بلغ عشر سنين حفظ أشياء من أصول الأدب، وأبوه كان يطالع ويتأمل رسالة إخوان الصفا وهو أيضاً أحيانا يتأملها"[33]. وهنا نلحظ حرص الأب على تعلم ولده بدايات علوم الحكمة بحرصه على العلم والتعلم والاشتغال بها في الصغر، والسفر من أجل طلب علوم الحكمة والعلم، وهذا نجده واضحا حين أبرز البيهقي ذلك قائلا: "ثم توجه تلقاء بخاري الحكيم أبو عبد الله الناتلي، وقد سبق ذكره فأنزله أبوه وآواه وأكرمه، وكان أبو علي يختلف في الفقه إلى إسماعيل الزاهد، ويتلقف مسائل الخلاف ويناظر ويجادل، ثم ابتدأ أبو علي بقراءة كتاب إيساغوجي على الناتلي[34] حتى أحكم عليه المنطق، ثم ابتدأ بكتاب أوقليدس ثم المجسطي[35]، فلما أفرغ الناتلي من تعليمه توجه تلقاء خوارزم قاصدًا حضرة

[33] نقل محقق كتاب **تاريخ حكماء الإسلام** -محمد علي كرد- عن القفطي في أخبار الحكماء أن ابن سينا قال كان أبي ممن أجاب داعي المصريين أي من الإسماعيلية، وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل وكذلك أخي وكانت نفسي لا تقبله، يقول المحقق: والغالب أن أبا علي بن سينا لم يدخل فيما دخل فيه أبوه وأخوه، ولم يتمذهب بمذهب الإسماعيلية، وكثيرا ما كان الأبناء يخالفون الآباء، وقد ذكر الثعالبي في المضاف والمنسوب عن ابن عائشة قال: كان للحسن بن قيس بن حصين ابن شيعي، وابنة حرورية، وامرأة معتزلية، وأخت مرجئة، وهو سني جماعي، فقال لهم: أراني وإياكم طرائق قددا. ص53.

[34] حاشية ترجم له البيهقي قائلا: كان حكيما عالما متخلقا، قال أبو علي في الحكيم أبو عبدالله الناتلي: ارتبطه والدي وكنت استفدت منه قوانين المنطق وانتهيت إلى غوامض يتعجب الناتلي منها فلما انتهيت في تعلم الرياضيات إلى المعطيات. المصدر السابق، ص37.

[35] كتاب في الفلك ألفه بطلميوس ونقله العرب إلى لغتهم.

خوارزم شاه مأمون بن محمد مولى أمير المؤمنين"[36]، وهذا دليل على أن علوم الحكمة كانت المشوار الأول في حياة ابن سينا وحرص والده عليها وتشبعه بأهميتها، ومعرفته بأسرارها وأثرها وأنها لا تقتصر على علوم الدين والأدب بل امتدت لدراسة المنطق والطب، ولعلنا نقف هنا حول جوانب من حياته العلمية والسياسية وأخلاقه كما حكاها البيهقي في كتابه.

ذكر البيهقي في كتابه جملة من الأحوال التي تدل على حرص ابن سينا على طلب العلم وذكائه فيه، ومنها أنه قال[37]: "اشتغل أبو علي بتحصيل العلوم من الطبيعي والإلهي، ونظر في النصوص والشروح، وانفتحت عليه أبواب العلوم، ثم رغب في علم الطب وتأمل الكتب المصنفة فيه، وكان ابن سينا يقول: "وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة"[38]، كما يؤكد البيهقي تفوقه ونبوغه وكمال حكمته بقوله: "حتى صار فضلاء الطب يختلفون إليه، ويقرؤون عليه المعالجات المقتبسة من التجربة، وهو مع ذلك يختلف في الفقه إلى إسماعيل الزاهد الفقيه"[39]. ولتأكيد البيهقي على ذكائه وطلبه للحكمة قال: "فلما جاوز اثنتي عشرة سنة من مولده أقبل بعد ذلك سنة ونصف سنة على العلوم، وأعاد

---

[36] من هنا علق البيهقي قائلا: "واشتغل أبو علي بتحصيل العلوم من الطبيعي والإلهي، ونظر في النصوص والشروح، وانفتحت عليه أبواب العلوم ثم رغب في علم الطب وتأمل الكتب المصنفة فيه". المصدر السابق، ص54.

[37] البيهقي، **تاريخ حكماء الإسلام**، ص54.

[38] المصدر السابق، ص 54 قال البيهقي معلقا: "فلا جرم صار فيه مدة قليلة عديم المثيل؛ فقيد القرين والنظير".

[39] المصدر السابق، ص54، ولعل تردد ابن سينا على الفقهاء هو دليل عناية بأطراف الحكمة من جميع جوانبها لما للفقه من مكانة ومنْزلة، ولما يحققه من قوة الإدراك والفهم والاستنباط فالنبي ﷺ قال: «من يرد الله به خيرا يفقه في الدين». أخرجه الإمام البخاري في **صحيحه**، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، رقم الحديث69.

قراءة المنطق وجميع أجزاء الفلسفة، وفي هذه المدة ما نام ليلة واحدة بطولها، ولا اشتغل في النهار بشيء سوى المطالعة، وجمع بين يديه ظهورًا من القراطيس، وكل حجة ينظر فيها يثبت مقدماتها القياسية، ويكتبها في تلك الظهور"[40].

وأيضا مما يدل على حرص ابن سينا على طلب العلم والحكمة قال البيهقي: "أقبل على العلم الإلهي، وقرأ كتاب ما بعد الطبيعة، وأعاد قراءته أربعين مرة، وصار له محفوظًا، ومع ذلك لا يفهمه ولا المقصود منه، ويأس من نفسه وقال: هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه"[41]. ومنها أيضا قوله: "واتفق أنه كان يومًا من الأيام في سوق الوراقين، فعرض عليه دلال يقال له محمد الدلال كتبًا ينادي عليه، فرده أبو علي رد متبرم، معتقدًا ألا فائدة في هذا العلم، فقال الدلال: اشتر مني فإنه رخيص بثلاثة دراهم، وصاحبه محتاج إلى ثمنه، فاشتراه فإذا هو كتاب لأبي ناصر الفارابي الفيلسوف الذي هو المعلم الثاني في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة، قال: فرجعت إلى بيتي وأسرعت قراءته، فانفتح علي في الوقت أغراض ذلك الكتاب"[42]، ولعل البيهقي في موضع آخر يدلل على ذكائه قائلا: "فلما بلغ أبو علي عشرة من عمره فرغ من العلوم كلها، ولم يتجدد له بعده شيء"[43]. وأما الذاكرة الحاضرة والتوقد الذهني والذكاء الفذّ الذي برع فيه ابن

---

[40] المصدر السابق، ص54.

[41] المصدر السابق، ص55. فالذكاء والمعرفة وقوة الإرادة عناصر اكتملت عند ابن سينا، فاستكملت عنده جوانب الحكمة.

[42] المصدر السابق، ص55، وفي هذه الرواية برهان على ذكاء ابن سينا، فشاب يحفظ القرآن ويدرس اللغة والأدب وهو دون العاشرة، ثم يأخذ في دراسة الحساب والمنطق بفترة زمنية قصيرة، ثم يكون استاذا لمعلمه الناتلي الذي شهد له بالنبوغ والعبقرية، ثم يبلغ في الطب درجة رفيعة من غير معلم، ويقرأ مشاكل الفلسفة من غير مرشد وهو في السادسة عشر من عمره، لدليل على ذكائه ويكفي بذلك دليلاً.

[43] المصدر السابق، ص75، وفي موضع آخر يروي البيهقي عن تلميذه أبو عبيد قوله: ومن عجائب أحوال الشيخ أن أبا عبيد صحبه ثلاثين سنة قال إنه ما رآه ينظر في كتاب جديد دعى الولاء بل يقصد

سينا فيدل عليه ما حدّث به تلميذه الجوزجاني في مناسبة تدليل كتاب الشفاء وقد أخذ يكتب فصوله من غير أن يستعين بمرجع مما استقى منها معارفه قال البيهقي: "وكان علا الدين سأل الشيخ المصير إليه، فأقام في دار أبي غالب العطار متواريا، وصنف فيها بلا كتاب يطالعه جميع الطبيعيات والإلهيات من كتاب الشفاء، وابتدأ بالمنطق وكتب جزءًا منه"[44].

كما ذكر البيهقي عنه جملة من المواقف التي تدل على عبادته ومنها: "وإذا تحير في مسألة، وما ظفر فيها بالحد الأوسط، تردد إلى الجامع، وصلى وابتهل إلى الله تعالى حتى يفتح الله تعالى له المنغلق منها، وكان يعود كل ليلة إلى داره، ويضع السراج، ويشتغل بالقراءة والكتابة"[45]. ومن شواهد قوه ايمانه وعبادته ما نقله البيهقي في ترجمة أبي نصر الفارابي حوله أن ابن سينا قال: "أيست من معرفة غرض ما بعد الطبيعة حتى ظفرت بكتاب لأبي نصر الفارابي فشكرت الله تعالى وصمت وتصدقت بما كان عندي"[46]. فمن هذه الشواهد أراد البيهقي أن يؤكد أن زوايا الحكمة وثمارها حاضرة عند ابن سينا، فتلمسه لمواضع العبادة والاشتغال بها سبيل لانفتاح الحكمة والحق يقول: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة:282].

المواضع الصعبة، والمسائل المشكلة منه، فينظر ما قاله المصنف فيها. فتتبين عنده مرتبته في العلم. المصدر، ص64. كما يؤكد محقق الكتاب على ذلك في ترجمته لأحد علماء عصره وهو البرقي الخوارزمي ناقلا عن ابن مأكولا رأيت له ديوان شعر أكثره بخط تلميذه ابن سينا. وجوانب حياة ابن سينا تظهر جوانب مضيئة فكما ذكر البيهقي ذلك من أنه قرأ كتاب ما بعد الطبيعة لأرسطو أربعين مرة.

44 المصدر السابق، ص63، والواقع أن ابن سينا ظل طول حياته يتفلسف ويمارس الطب بما أتقن في عهد الطلب.

45 المصدر السابق، ص54.

46 المصدر السابق، ص31.

لم يكتف البيهقي في ذكر ترجمة ابن سينا بعرض جانب واحد من مناقبه وإشراقاته، بل تناول جانبا آخر من لهوه، وعدم وفائه بعلوم الحكمة، وسوء تصرفه مع بعض أقرانه، أو علماء عصره، منها ما نقله البيهقي إذ يقول: "فإذا غلبه النوم، وابتدره ضعف مزاج، شرب قدحًا من النبيذ"[47]. بل قال عنه البيهقي: إنه كان مشغوفًا بشرب الخمر، واستفراغ القوى الشهوانية، ثم اقتدى به في الفسق والانهماك من بعده، وفي موضع آخر يذكر البيهقي: "أن أبا علي كان قوي المزاج، وكانت قوة المجامعة عليه أغلب، وكان يشتغل باستفراغها، فأثر ذلك في مزاجه"[48]. وفي موضع آخر يشير البيهقي إلى أن مجلس العلم أحيانا لا يخلو من الشراب الذي ولع به فيقول: "فكان يجتمع كل ليلة في داره طلبة العلم، وأبو عبيد[49] يقرأ من كتاب الشفاء نوبةً، ويقرأ المعصومي من

[47] المصدر السابق، ص54.

[48] المصدر السابق، ص68، والحقيقة أن مثل هذا الوضع الذي فتن به ابن سينا من الشرب وغيره كان غالبا في عادة أهل عصره، فبعض الحنفية رحمهم الله كان لهم رأي في النبيذ وشربه وإباحته، وهي من المسائل التي لم تحظ بجدل واسع كمسألة الخمر، وفي المقابل فورود أبواب السلاطين له فتنته ومصائبه، وأخرج أحمد في مسنده، والبيهقي بسند صحيح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من بدا جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى أبواب السلطان افتتن، وما ازداد أحد من السلطان قرباً، إلا ازداد من الله بعداً".

[49] المصدر السابق، ص62، ترجم البيهقي في كتابه لأبرز تلاميذ ابن سينا بالترتيب وبين مكانتهم وقدر كل منهم، وهم:

1. **بن زيله**: قال عنه البيهقي مترجما هو الحكيم أبو منصور الحسين بن طاهر بن زيلة، من خواص ابن سينا ومن بطانته، كان عالما بالرياضيات وماهر في صناعة الموسيقى، عارفا بعلوم العرب، ومن تصانيفه الاختصار من طبيعيات الشفاء، كان قصير العمر مات في سنة 404 بعد موت ابن سينا 12 سنة، ومن حكمه: "لا تتفكر في الأمور المستقبلية فإنك لا تدري ما يأتيك منها وما لا يأتيك. المصدر السابق، ص99.

2. **أبو عبيد**: قال عنه البيهقي هو الحكيم أبو عبيد عبدالواحد الجوزاني من خواص أبي علي وأحلاس مجلسه وندمائه وخدمه وهو من أعان ابن سينا على جمع كتاب الشفاء، وفسر مشكلات القانون

القانون نوبة، وابن زبلة يقرأ من الإشارات نوبة، وبهمن يار يقرأ من الحاصل والمحصول نوبة، فإذا فرغوا حضر المغنون واشتغلوا بالشراب، وكان التدريس بالليل لعدم الفراغ بالنهار[50]. من هنا نجد أن ابن سينا قصر في الوفاء بما يجب عليه العالم الحكيم المسلم العامل بعلمه مقارنة بما كان عليه الأئمة الحكماء كأبي حنيفة ومالك والأشعري، كما ذكر البيهقي في مواضع أخرى من كتابه نماذج تدل على سوء خلقه -رحمه الله- ومنها: ما ذكره البيهقي في ترجمة الفيلسوف أبو الفرج بن الطيب الجاثليق أن ابن سينا كان يعترف في تقدمه في صناعة الطب ثم يعترض على بعض رسائله ويذمه ويتهجن تصانيفه، ويقول في المباحث: من حق تصنيفه أن يرد على بايعه، ويترك عليه ثمنه[51].

ولعل هذا من باب التحاسد يكون بين أهل العصر، وهو أمر طبيعي معروف، ولقد نقل البيهقي قول الحكيم ظهير الحق محمد بن مسعود الأديب الغزنوي الذي ذكر أن الحسد بين العلماء شيء طبيعي فقال: "الحسد لازم

وشرح رسالة حي بن يقظان، وصفه البيهقي قائلا: ولم يوجد في تلاميذ أبي علي أحد أقل بضاعة منه وكان أهم حكم أبي عبيد قوله" ثلاثة أشياء القليل منها كثير: صحبة السلطان والنساء والمال، المصدر السابق، ص101.

3. **المعصومي**: قال عنه البيهقي هو أبو عبدالله محمد بن أحمد المعصومي الحكيم، كان من أفضل تلاميذ أبي علي وهو الذي صنف أبو علي باسمه كتاب العشق. قال ابن سينا في شأنه: هو مني بمنْزلة أرسطو من أفلاطون، ومن حكمه قوله: دأب الحكيم التروية في الجواب بعد استيعاب الفهم. المصدر السابق، ص102.

[50] المصدر السابق، ص62.

[51] قال البيهقي معلقا: وليس هذا من دأب الحكماء. المصدر السابق، ص43. وقال ابن الجوزي – رحمه الله –: "تأملت التحاسد بين العلماء فرأيت منشأه من حُبِّ الدنيا؛ فإنّ علماء الآخرة يتوادُّون ولا يتحاسدون كما قال الله عز وجل: ﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا﴾". ابن الجوزي، **صيد الخاطر**، تحقيق شعيب الأرنؤوط، (بيروت: دار ابن خلدون)، ص25.

للعلماء، فأنا لخوف الحسد وشره أحكم بترك العلم"[52]. ونقل البيهقي حادثة في هذا الصدد قال: "رأيت في بعض الكتب أن ابن سينا دخل على الحكيم أبي علي بن مسكويه صاحب كتاب تجارب الأمم، والتلاميذ حوله، فرمى أبو علي جوزة، وقال: بيِّن مساحة الجوزة بالشعيرات، فرفع ابن مسكويه أجزاء في الأخلاق، ورماها إلى ابن سينا وقال: أما أنت فأصلح أخلاقك، أولا حتى أستخرج مساحة الجوزة، وأنت أحوج إلى إصلاح أخلاقك مني إلى مساحة الجوزة.[53]، ونقل البيهقي كذلك أن البيروني بعث مسائل لابن سينا فأجاب عنها، واعترض البيروني على أجوبته، وهجَّنه وأذاقه مرارة التهجين، وخاطب أبا علي بما لا يخاطب به العوام، فضلا عن الحكماء، فلما تأمل أبو الفرج الأسئلة والأجوبة قال: من نخل الناس نخلوه، ناب عني أبو الريحان[54]. وفي ترجمة الحكيم الكرماني نقل البيهقي أنه جرت بين ابن سينا وبين الحكيم أبي القاسم الكرماني مناظرة أدت إلى مشاجرة لزمها سوء الأدب، ونسبه أبو علي إلى قلة العناية بصناعة المنطق، ونسب أبو القاسم أبا علي إلى الغلط والمغالطة، وكتب هذه المنظرة أبو علي إلى الشيخ الوزير الأمين أبي سعيد الهمذاني الذي صنف ابن سينا باسمه الرسالة الأضحوية[55].

---

52 البيهقي، **تاريخ حكماء الإسلام**، ص152.

53 المصدر السابق، ص44.

54 المصدر السابق، ص45.

55 المصدر السابق، ص48، ولعل هذه المواقف تظهر في مجملها اعتداد ابن سينا بنفسه، فهو يتكلم منذ الصغر عن أستاذه الناتلي ويحاول أن يتعلم الطب والفلسفة من غير معلم، وقال الكرماني لابن سينا: "لا يقدر ما عندك بتهجين ما عند غيرك فإن الحق أبلج والإنصاف لم ينعدم". ويتمثل دائما بقول الشاعر:

لما عظمت فليس مصر واسعي   لما على ثمني عدمت المشتري

ولقد ذكر البيهقي جانبا ساهم في اعتداده بنفسه، وهو هيئته وجماله، وهي حادثة حصلت في الري بينه وبين أحد الشبان الذين لاقاهم حين قال له الشيخ: وكيف عرفتني؟ فقال الشاب: كنت أسمع بجمالك وحسن هيئتك وفطانتك. ص71.

ولعل كل هذه الروايات تحصل من تحاسد العلماء، وهي مشهورة معروفة، ولو أنها تنقص من حكمة العالم وعلمه، ومرد حسد العلماء إلى تفاضلهم في الاجتهاد، وتفاوتهم في الاستعداد لبذل الجهد، ومهما يكن من هذه الروايات إلا أن الحكمة والتعامل مع الحكماء وطلب الاستفادة منهم له حضوره فقد نقل البيهقي في ترجمة الحكيم أبو الخير الحسن بن سوار أن أبا علي قال في بعض كتبه عنه:" وأما أبو الخير لعل الله يرزقنا لقاءه فيكون إما فائدة أو استفادة."[56]

كما نقل البيهقي جانبا مهما من مواقفه مع علماء عصره أو موقف العلماء عليه ومنها: "أن إسماعيل الهروي كان لا يخوض في تصانيف أبي علي"[57]. وعلى هذا النحو كان لمحمد الشهرستاني صاحب كتاب "الملل والنحل" موقف منه، فقد كان يعرف حق ابن سينا، بل كان كما يقول البيهقي في ترجمته: "يهجن كلامه"، ففي كتاب المناهج والآيات قال البيهقي معلقا: "والشهرستاني لم يسلك في تصانيفه سبيل الحكماء[58]، مع أن البيهقي يقف مستغربا فيقول: "ورأيت له مجلسا مكتوبا عقده بخوارزم فيه إشارة إلى أصول الحكمة فتعجبت منه"[59]. وفي النقيض كان بعض العلماء يجلّونه ويحفظون

---

[56] المصدر السابق، ص27. وكان أبو الحكيم الأديب أبو الفرج علي بن الحسين بن هندو مقتبسا من فوائد الحكيم أبي الخير الحسن بن سوار. المصدر السابق، ص93.

[57] المصدر السابق، ص104.

[58] المصدر السابق، ص142. ولعل هذا ليس دقيقا من البيهقي إذا ما قورن بما ذكره الشهرستاني في الترجمة لابن سينا في الملل والنحل، والتي حرص فيها على عرض آرائه وفلسفته وحكمته، فعقد له فصلا وعرض كلامه في المنطق والإلهيات والطبيعيات.

[59] المصدر السابق، ص142. ولعل استطراد البيهقي في نقل هذا عن ابن سينا ربما لما وقع بين البيهقي والشهرستاني من المخاصمة والمجادلة.

علمه، ومن ذلك أن البيهقي نقل في ترجمة الحكيم ميمون بن النجيب الواسطي أنه كان يحفظ المنطق والطبيعيات والإلهيات من كتاب الشفاء لابن سينا[60]، وهذا دليل على الأثر الذي تركه ابن سينا من الحكمة التي أثرت في كيانه وفكره، واتسمت بها مؤلفاته، وأثرت في تلاميذه ومعجبيه، فالبيهقي لم ينس أن يسجل جوانب من هذه الحكمة، فقد نقل في ترجمة الأديب الفيلسوف أبي العباس اللوكري الذي نقل في ترجمته قائلا: "كان تلميذ بهمن يار، وبهمن يار تلميذ أبي علي، وعن الأديب أبي العباس انتشرت علوم الحكمة بخراسان"[61]. ويقول البيهقي في ترجمة القاضي الفيلسوف محمد الأفضل عبد الرزاق التركي: "إنه كان حافظا لأكثر كتب ابن سينا، عالما بمطالب مصنفاته، لكن لم يتعمق فيها علماء عصره"[62].

كما نقل البيهقي في ترجمة الملك العادل علاء الدولة علي بن فرامرز ملك الري أنه قال لعمر الخيام: "ما تقول في اعتراضات الحكيم أبي البركات على كلام أبي علي؟ فقال له عمر: أبو البركات لم يفهم كلام أبي علي، وليست له رتبة الإدراك لكلامه، فكيف يكون له رتبة الاعتراض عليه وإيراد الشكوك على كلامه؟!! فقال له الملك علاء الدولة: أمن المستحيل أن يكون حدس أقوى من حدس أبي علي؟ أم من الممكن؟ فقال الإمام عمر: ليس من المستحيل. فقال له الملك علاء الدولة: ساواك عبد غيرك! أنت تقول: ليست له رتبة الإدراك والاعتراض، [وغلامي الدواتي يقول: له رتبة الإدراك والاعتراض]، والزيادة تتكلم بما لا يزيد به كلامك على كلام مملوك، ولا تميل إلى سفاهة، غلامي أقدر عليها منك، فتشوَّر الإمام عمر، فقال له الملك علاء

---

60 المصدر السابق، ص105.

61 المصدر السابق، ص126. قال البيهقي معلقا: "وكان عالما بأجزاء علوم الحكمة".

62 المصدر السابق، ص130.

الدولة: الحكيم يهجّن كلام غيره بالبرهان، والجدلي السفيه بالوقيعة والبهتان، فاطلب أعلى الدرجتين، ولا تقنع بأخس الرذيلتين، فقام الإمام عمر ملجما بالسكوت"[63]. وهذا موقف يدلل على حظ ابن سينا عند العلماء وعلو مكانته، فالأمير لم يكترث برأي عمر الخيام، وهنا إشارة ونكتة لطيفة دللت على موضع من مواضع الحكمة أن التهجين الذي مارسه ابن سينا كان قائما بالبرهان لا بالهوى، وهي درجة عرفها الأمراء، وهي في المقابل لو كانت فإنها لا تعرف بالخسة من العالم الحكيم.

كما نقل البيهقي جانبا يدلل من خلاله ارتباط ابن سينا بالحكام وأمراء عصره وشدة افتخارهم به واعترافهم بعلمه ومكانته العلمية ورسوخ قدمه في الطب، يقول: "كان أبو علي يحضر مجلس علاء الدولة، وعليه قباء داري وعمامة خيش وخف أدم، ويجلس بين يديه قريبًا منه، وكان يتبين أثر السرور في وجه الأمير إذا حضر، لتعجبه من جماله وفضله وظرفه، فإذا تكلم استمع له أهل المجلس، لا ينبسون بحرف حتى ينتهي"[64].

ويؤكد البيهقي أيضا في عرضه قرب ابن سينا من الحكام قائلا: "وكان ملك المشرق وخراسان في ذلك الزمان الأمير نوح بن منصور عرض له مرض أعجز الأطباء، وكان اسمه اشتهر في التوفر على العلم والقراءة، فسألوا الأمير إحضار أبي علي فحضره وشاركهم في معالجته فوسم بخدمته"[65]. قال البيهقي

---

[63] المصدر السابق، ص117، عمر بن إبراهيم الخيام: قال عنه البيهقي: هو حجة الحق الفيلسوف، نيسابوري كان تلو أبي علي بن سينا في أجزاء علوم الحكمة، إلا أنه كان سيء الخلق، ضيق الطعن. المصدر السابق، ص119.

[64] المصدر السابق، ص70، لذا نلمس أن الرئيس لقب من الألقاب السياسية، كان يلقبه الوزراء تمييزًا لهم وتعظيما، ولعل هذه الشهرة ترجع إلى عصره نفسه واتباطه بالحكام.

[65] المصدر السابق، ص56.

معلقا: "وصار أول حكيم توسم بخدمة الملوك، وكان الحكماء قبل أبي علي يترفعون عن ذلك، ولا يقربون أبواب السلاطين"[66]. وأقول: إن الثابت من أئمة الفقه أنهم كانوا يترفعون عن العطاء والقضاء، والظاهر أن البيهقي هنا ينقد ابن سينا، ولكن التأريخ شهد أن الكندي قبله كان من عمال الدولة العباسية، وكذلك الفارابي في حاشية بني حمدان، إذ أنه لا يضر العالم الحكيم لو اقترب من الحكام إذا لازمه نصحهم، ولكن هذا لا يدعو الحكيم العالم لقبول مناصبهم، فقد اقترب الإمام مالك من هارون الرشيد، وكان الإمام أحمد يقول: "لو أن لي دعوة مستجابة لوهبتها الأمراء"، لذا لا ينقص بالعالم الحكيم ذلك، بل ربما يكون من الحكمة أن يكون للعالم والحكيم مكانته عند الأمير ليعرف الناس مكانتهم وقدرهم.

كما يستطرد البيهقي في بيان ذلك بذكر قصة الأمير نوح بن منصور حينما سأل أبو علي الإذن له في دخول دار له فيها بيوت الكتب، فنَال الإيجاب، فطالع من جملتها فهرست كتب الأوائل، وطلب ما احتاج إليه، فرأى من الكتب ما لم يقرع أسماع الناس اسمه لأبي نصر الفارابي وغيره، فقرأ تلك الكتب، وظفر بفوائدها، وعرف مرتبة كل رجل في علمه من المتقدمين، فاتفق احتراق تلك الدار، واحترقت الكتب بأسرها[67]. وينقل البيهقي أن بعض خصماء أبي علي اتهمه بأنه أحرق تلك الكتب ليضيف تلك العلوم والنفائس إلى نفسه، ويقطع أنساب تلك الفوائد عن أربابها والله أعلم، ولو صحت هذه الرواية لكان ذلك قدحا في خلقه وخلق الحكماء، ولا يظن بابن سينا أن يفعل ذلك وهو المقرب من الحكام، ورأيته عند الإمام محمد الحارثان السرخسي رحمه الله بخط رديء مقرمط في سنة أربع وأربعين وخمسمائة، ثم مات والده وسن أبي

[66] المصدر السابق، ص56.

[67] المصدر السابق، ص56..

علي اثنتان وعشرون سنة، وتصرفت (به) الأحوال، وتقلد عملاً من أعمال السلطان[68].

وهنا يلحظ قارئ الترجمة التي أوردها البيهقي أن مواقفه السياسية لها جانبٌ من الارتباط كبير برحلاته، فكان قربه من الحكم والحكام سببًا في كثرة تنقلاته ورحلاته التي سببت حبسه وتعذيبه، ومنها ما نقله البيهقي قائلا: "اتهمه تاج الملك بمكاتبة علاء الدولة، فأخذه وحبسه في قلعة نردوان، وبقى فيها أربعة أشهر. ثم قصد علاء الدولة أبو جعفر كاكويه همذَان واستولى عليها. ثم رجع علاء الدولة وعاد تاج الملك وابن شمس الدولة من القلعة إلى همذان، وحملا معهما الشيخ"[69].

وهنا وقفة مهمة، وهي أن ابن سينا؛ وإن كان مقربا من الحكام خادما لهم ومطبّبًا، إلا أن بعض الحكام لا يعرف للحكيم والعالم قدره، فقد تأذى ابن سينا من بعضهم، وهذا وارد، لذا أراد البيهقي أن يعرض جانبا من ذلك فقال: "واتفق أن أعطاه الأمير علاء الدولة منطقة مفضضة مذهبة مع السكاكين، ثم رآها الأمير مع غلام من خواص غلمانه، فقال له: من أين هذه المنطقة؟ فقال: أعطانيها الحكيم. فاشتد غضبه عليه، وصك وجهه ورأسه وأمر بقتله، فطلبوه فوجده واحد من أصحاب الأمير فخلاه حتى هرب، وقد غير ثيابه وزيه"[70].
وفي إيراد البيهقي لعرض مصنفات ابن سينا وخراجه العلمي المتنوع يلحظ

---

[68] المصدر السابق، ص58، يكمل البيهقي قائلا في قربه من مناخ السلاطين: "ولما اضربت أمور السامانية دعته الضرورة إلى الخروج من بخارى، والانتقال إلى كركانج، والاختلاف إلى خوارزم شاه علي بن مأمون بن محمد، وكان أبو الحسن السهلي المحب لهذا العلم بها وزيرًا، وكان أبو علي على زي الفقهاء بطيلسان وعمامة (تحت الحنك)، فأثبتوا له مشاهرة تقوم بكفاية مثله.

[69] المصدر السابق، ص63.

[70] المصدر نفسه، ص70.

القارئ أمرًا مهمًّا، وهو أن تصانيف ابن سينا كانت في علوم كثيرة كالفلسفة والطب واللغة، فإنتاجه متنوع حتى نال الشعر وبرع فيه، وفي المقابل نجد أن بعض تصانيفه كان بسبب طلب من طلبة العلم وطلابه، وبعضها كانت ردة فعل لموقف –لا يخلو من غيرة العلماء وتحاسدهم–، وبعضها الآخر يكون لنضوج الفكرة والعلم لديه.

وإضافة لعلم من العلوم، الفلسفية كانت أو الطبية، يقول: "وكان أبو عبيد يختلف إليه كل يوم يقرأ المجسطي ويستملي المنطق، فأملى عليه المختصر الأوسط في المنطق، لذلك يقال له الأوسط الجرجاني، وصنف لأبي محمد الشيرازي كتاب المبدأ والمعاد وكتاب الأرصاد الكلية، وصنف في جرجان كتبًا كثيرة كأول القانون، والمختصر من المجسطي، وكثيرًا من الرسائل والكتب"[71].

ومن الأحوال التي كانت سببا في تأليفه لبعض مؤلفاته، ما كان طلبا من بعض تلاميذه، منه ما ذكره البيهقي قائلا: "ثم سأله الفقيه أبو عبيد شرح كتب أرسطو، فذكر أنه لا فراغ له، ولكن إن رضيت مني بتصنيف كتاب أورد فيه ما صح عندي من هذه العلوم بلا مناظرة مع الخصوم، ولا اشتغال بالرد عليهم فعلت؟ قال أبو عبيد: فرضيت بذلك، فابتدأ بالطبيعيات من كتاب الشفاء، وقد صنف المجلد الأول من القانون[72]. وأيضا نقل البيهقي في عرض

---

[71] المصدر السابق، ص59، يجد الناظر للطريقة التي تناولها البيهقي في عرضه لكتبه أنه تناولها ولم يذكر ترتبها في التأليف، بل ذكر المصنف وعدد مجلداته، معرجا أحيانا على الفترة الزمنية التي ألف فيها بعض مؤلفاته وأحداثها، وذكر في ختام عرضه لمؤلفاته قوله: "ومسائل جرت بينه وبين فضلاء العصر". ص60. ونحسب أن البيهقي لم يتناول كل مؤلفات الشيخ الرئيس ابن سينا كما ذكرها الذين ترجموا لابن سينا كالقفطي وابن خلكان وغيره. ولا نستطيع في هذه العجالة أن نحيط بكل مؤلفات ابن سينا.

[72] المصدر السابق، ص62. وهنا أراد أن يؤكد البيهقي أن تصانيف ابن سينا ومؤلفاته لها ارتباطها بالحكام وأحوال سفره، ومنه ما قال: بعدما رجع تاج الملك وابن شمس الدولة من القلعة إلى همذان، حملا معهما الشيخ –ابن سينا–، فنَزَل في دار علوي، واشتغل بتصنيف المنطق من كتاب الشفاء،

ترجمة ابن سينا طرفا من سبب تأليف بعض كتبه قائلا: "وكان في جواره أيضًا رجل يقال له أبو البكر البرقي الخوارزمي فقيه زاهد مفسر مائل إلى هذه العلوم، فسأله شرح الكتب فصنف له كتاب الحاصل والمحصول. وكان في بيت كتب بوزجان منه نسخة فقدت، وأتم كتاب الحاصل والمحصول في عشرين مجلدة، وصنف له كتابًا في الأخلاق، وسماه "البر والإثم"[73]. ولارتباط ابن سينا بمجالس الحكام واستفادتهم منه وتعلقهم بعلومه قال البيهقي: "كان الشيخ في ليالي الجمعات يحضر مجالس علاء الدولة مع علماء البلدة، وإذا تكلم استفادوا منه في كل فن."[74]

ومن المواقف التي كانت سببا في تنوع مصنفات ابن سينا ما كان ردة فعل لموقف معين، فقد أورد البيهقي حادثة تدل على ذلك، يقول: "وكان الشيخ جالسًا يوما بين يدي الأمير، والأديب أبو منصور الجبان حاضر، فجرت في اللغة مسألة تكلم الشيخ فيها بما حضره، فقال له أبو منصور: إنك حكيم، ولكنك لم تقرأ من اللغة ما يرضى به كلامك، فاستنكف الشيخ من هذا الكلام، وتوفر على درس اللغة ثلاث سنين، وكان ينظر في كتاب تهذيب اللغة من تصنيف أبي منصور الأزهري، فبلغ الشيخ في اللغة طبقة قلما يتفق مثلها، وأنشأ ثلاث قصائد وضمنها ألفاظًا غريبة، وكتب ثلاث رسائل على طريق ابن

وصنف في القلعة كتاب الهداية، وكتاب حي بن يقظان، ورسالة الطير، وكتاب القولنج، فأما الأدوية القلبية فقد صنفها في أول وروده همذان. ثم عنَّ للشيخ التوجه تلقاء أصفهان، فخرج متنكرًا، ومعه أخوه محمود والفقيه أبو عبيد وغلامان له في زي الصوفية، فلما وصلوا إلى الطبران على باب أصفهان استقبله خواص الأمير علاء الدولة، وحمل إليه الثياب والمراكب الخاصة، وأنزل في دار عبد الله بن بابي في محلة كونكنبذ. المصدر السابق، ص63.

[73] المصدر السابق، ص57.

[74] المصدر السابق، ص63.

العميد والصاحب والصابي، وأمر بتجليدها وأخلاق جلدها، ثم سأل الأمير عرض تلك المجلدة على أبي منصور الجبان، وذكر أن ظفرنا بهذه المجلدة في الصحراء في وقت الصيد، فيجب أن تنتقدها وتقرر لنا ما فيها، فنظر فيها الشيخ أبو منصور، وأشكل عليه كثير منها، فقال له الشيخ أبو علي: إن ما تجهله من هذا الكتاب مذكور في موضع كذا وكذا، وذكر له كتبًا معروفة في اللغة، ففطن أبو منصور أن هذه القصائد والرسائل من إنشاء أبي علي، فتنصل واعتذر إليه"[75].

كما لم يغفل البيهقي في عرض ترجمة لابن سينا أن يؤكد على تفوق الطب عند ابن سينا ونبوغه فيه، وأسرار معالجاته، وبيان أهم كتاب له فيه، وهو كتاب (القانون في الطب)[76]، ومن هذه المواقف قوله: "أنه صدع يومًا، فتصور أن مادة نزلت إلى حجاب رئته، وأنه لا يأمن ورمًا يحصل فيه، فأمر بإحضار ثلج كثير، ولفه في خرقة وغطى رأسه بها حتى تقوى الموضع، وامتنع عن نزول تلك المادة وعوفي[77]. ومنها أيضا: "أن امرأة مسلولة بخُوارزْم حضرته، فأمرها ألا تتناول من الأشربة إلا جلنجين السكر، حتى تناولت على مرّ الأيام منه مائة مَنٍّ، وشفيت المرأة"[78].

---

[75] المصدر السابق، ص65. ثم صنف الشيخ كتابًا في اللغة وسماه لسان العرب، لم يُصنف مثله، ولم ينقله إلى البياض فبقي على مسودته، لا يهتدي أحد إلى ترتيبه. ولعل هذا الكتاب فقد ولم يوجد له أثر.

[76] يعد أكبر موسوعة طبية في العصور الوسطى زودت الأطباء، في الشرق والغرب على السواء، بزاد معرفي وعلاجي وجراحي وتشريحي لم يتوافر لعالم أو طبيب من قبل، وبدأ هو نفسه بتأليف كتاب القانون في الطب، بعدما عاد للأمير شمس الدولة مرض "القولنج" فطلب الشيخ واشتغل بمعالجته، بعدها سأله أبو عبيد شرح كتب أرسطو، فذكر ابن سينا أنه لا فراغ له بذلك، وقال ابن سينا له: لو رضيت مني بتصنيف لا مناظرة فيه ولا خصومة فرضي له، فابتدأ بالمصنف الأول من القانون. البيهقي، **تاريخ حكماء الإسلام** بتصرف يسير، ص62.

[77] المصدر السابق، ص66.

[78] المصدر السابق، ص66.

وفي المقابل، لم يكن علم الطب مهنة اتخذها وتكسب منها، ولكنه كان يطبب الأمراء من غير مقابل، ومن المواقف قوله: "حينما عاود الأمير شمس الدولة مرض "القولنج"، طلب الشيخ ابن سينا، وحضر مجلسه، فاعتذر إليه الأمير فاشتغل الشيخ بمعالجته، وأقام عنده مكرما مبجلا، وأعيدت الوزارة إليه"[79].

لكن، ومع تقدم سنه، لم يستطع ابن سينا معالجة نفسه رغم براعته في الطب، فقد ذكر البيهقي رواية تدل على ذلك فيقول: "في السنة التي ضعف فيها علاء الدولة الأمير حسام الدولة أبو العباس تاج فراش على باب الكرخ، فتقرّح بعض أمعائه، وظهر له سَحْج، وكان لا بد له من المسير مع علاء الدولة، فظهر به الصرع الذي يتبع علة القولنج، فأمر يومًا باتخاذ دانقين من بزر الكرفس في جملة ما يحقن به، وخلطه بها طلبًا لكسر ريح القولنج، فقصد بعض الأَطباء الذي يعالجه، وطرح من بزر الكرفس خمسة دراهم، ولا يدري أعمدًا فعله أم سهوًا، فازداد السحج به من حدة بزر الكرفس، وكان يتناول مثروديطوس لأجل الصرع، فقام بعض غلمانه، وطرح في مثروديطوس شيئًا كثيرًا من الأفيون وتناوله، ثم قصد علاء الدولة همذان ومعه الشيخ، فعاد الشيخ القولنج في الطريق إلى أن وصل إلى همذان"[80].

لذا، وبعد حياة مليئة بالهمة والحكمة، والأحداث والتراث العلمي الزاخر، والسياحة الفكرية والعلاقات السياسية والجولات المختلفة، علم ابن سينا أن حياته أزفت على الرحيل، وعلم أن قوته قد سقطت، وأنها لا تفي بدفع المرض، فأهمل من أداة نفسه، ونقل البيهقي كلمته المشهورة: "المدبر الذي في بدني عجز عن تدبير بدني، فلا تنفعني المعالجة، ثم اغتسل وتاب، وتصدق بما بقي معه

[79] المصدر السابق، ص61.

[80] المصدر السابق، ص69.

على الفقراء، ورد المظالم إلى من عرفه من أربابها، وأعتق غلمانه، وكان يحفظ القرآن فيختم في كل ثلاثة أيام، ثم مات في الجمعة الأولى من رمضان سنة ثمان وعشرين وأربعمائة، ودفن في همذان[81]. وهذه الحادثة تدل على استفادة ابن سينا من الحكمة في تحصيل كماله الإنساني، وأثرها الحقيقي الذي برز وبزغ في آخر حياته؛ إذ إن شعوره بالموت جعل الحكمة تستنطق من كيانه، ونطقت بها أعماله وجوارحه[82].

الخاتمـــة

بعد استعراض ترجمة ابن سينا –عند البيهقي– يحق لنا القول بأننا قد تعرفنا على معالم تلك الرؤية التي صدر عنها البيهقي، والتي تمثل المستوى العميق في بيان الغرض الذي لأجله كتب البيهقي تلك التراجم. ولما كان ابن سينا قد شغل تلك المساحة المميزة في الكتاب فيمكننا القول بإنه النموذج المثالي للحكيم المسلم، ولكن البيهقي –قبل غيره– كان عالماً بتلك الاعتراضات التي تمنع من أن يتخذ ابن سينا نموذجًا لذلك الحكيم، ولذلك فقد قام بذكرها بصورة مفصلة في ترجمة ابن سينا، وحاول أن يجد المسوغات العقلية والطبيعية لتفسيرها، وركز على بيان حسن الخاتمة في حياة ابن سينا.

---

81 المصدر السابق، ص69، وقد نقل ابن أبي اصيبعة في **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، تحقيق نزار رضا، (بيروت: دار الحياة)، أن بعض الشعراء هجوه بقوله:

رأيت ابن سينا يعادي الرجال وبالحبس مات أخس الممات

فلم يشف ما ناله بالشفـــا ولم ينـــج من موته بالنجاة

وقوله بالحبس يريد انحباس البطن من القولنج الذي أصابه، والشفاء والنجاة أسماء لبعض كتبه.

82 وهذا يذكرنا بحكمة نقلها البيهقي عن أبو زيد البلخي وصفه قائلا: "كان من حكماء الإسلام وفصحائهم، له تصانيف من أهمها وجوه الحكمة في الأوامر والنواهي الشرعية". ويقول البلخي في حكمته: "لا بد من الموت فلا تخف، وإن كنت تخاف مما بعد الموت فأصلح شأنك قبل موتك، وخف سيئاتك لا موتك"، لذا برزت الحكمة عند ابن سينا بإصلاح حاله فلجأ لفعل الصالحات والطاعات.